

مفهوم تحليل الخطاب القرآني في الفكر العربي المعاصر

The Qur'anic discourse concept in contemporary Arab thought

د.فاطمة الزهرة فتاك

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف
(الجزائر)

f.fettak@univ-chlef.dz

تاريخ القبول: 2024/07/01

تاريخ الاستلام: 2024/03/05

ملخص:

حظي القرآن الكريم منذ لحظة نزوله إلى يومنا هذا باهتمام منقطع النظير، هذا الاهتمام تجلّى من خلال علوم القرآن المختلفة التي سعى علماء الإسلام من خلالها إلى فهم القرآن الكريم واستنباط الأحكام الشرعية منه، ومن بين هذه العلوم تفسير القرآن الذي تنوعت وسائله ومنطلقاته كما تنوعت تسمياته، حيث انتقلنا مع العصور المتتالية من التفسير والتأويل إلى تحليل الخطاب.

فماذا يعني مصطلح تحليل الخطاب القرآني؟ وهل مفهومه واحد عند جميع المشتغلين فيه؟ هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه الورقة البحثية، مستعينين فيها بالمنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: تحليل الخطاب، القرآن، النص، الخطاب، السيميوطيقا

Abstract:

Since it was revealed till now, the Holy Qur'an has received unparalleled attention. This interest has been demonstrated through the various Quranic sciences, through which Islamic scholars have sought to understand the Holy Qur'an and derive provisions of the Islamic sharia from it. Among these Quranic science ' the interpretations of the Holy Qur'an, whose methods and starting points have varied as well as Its nomenclature, as we moved with successive eras from interpretivism to discourse analysis,

What does the term Analysis of the Quranic Discourse mean? Is its concept the same for all those working in it? These questions And others, we will try to answer through this research paper, using the descriptive and analytical approach

Keywords: Discourse analysis, Qur'an, Text, Discourse, Semiotics

. مقدمة:

يعد مصطلح تحليل الخطاب من المصطلحات الحديثة التي ظهرت في القرن العشرين، للدلالة على مجال معرفي وقع اختلاف كبير حول حدوده وماهيته، وقد كان أول ظهور للمصطلح من خلال عنوان مقال للغوي الأمريكي لزيلج هاريس *Zellig Sabbettai Harris* سنة 1952، الذي تناول فيه إمكانية توسيع الطرق التوزيعية التقليدية المطبقة على الجملة لتشمل ما فوق الجملة؛ أي الخطاب، وذلك ضمن حديثه عن السلاسل الخطية للأقوال، كما اهتم فيه بالروابط بين النص وسياقه الاجتماعي. وذلك في ظل النظرية اللسانية التوزيعية.¹

وإن كانت الانطلاقة الأولى لتحليل الخطاب قد بدأت في ظل اللسانيات، وبالتحديد لسانيات النص أو نحو النص الذي وضعه هاريس، إلا أنّ الأبحاث التالية له في فترة الستينيات وما بعدها في فرنسا وأمريكا، بدأت تأخذ الطابع الاجتماعي والأنثروبولوجي والهرمينوطيقي، خصوصا وأن كثيرا من رواد العلوم الإنسانية والاجتماعية استلهموا من هاريس اهتماماته بالخطاب وربط هذا الخطاب بسياقه الاجتماعي، فوضعوا أبحاثا بدأت توضع شيئا فشيئا في خانة تحليل الخطاب، بعد سقوط الحواجز بينها لاشتراكها في نفس الموضوع وهو الخطاب، ولاشتراكها أيضا في التأثير الشديد بالإرث البلاغي والهرمينوطيقا الأدبية والدينية وبالنظريات الفلسفية الاجتماعية والنفسية، وقد استطاع دومينيك منغنو أن يصنف هذه الأعمال في أربعة أقطاب كبرى هي كالآتي:

- 1- الأعمال التي تدرج الخطاب في تيار التفاعل الاجتماعي.
- 2- الأعمال التي تعطي مكانة خاصة لدراسة وضعيات التواصل اللغوي ومن ثمّ لأجناس الخطابات.
- 3- الأعمال التي تربط بين الاشتغالات الخطابية وظروف إنتاج المعارف أو التوقعات الأيديولوجية.
- 4- الأعمال التي تعطي المكانة الأولى للتنظيم النصّي، أو رصد واسمات الخطاب.²

وقد رافق هذا التنوع في طبيعة الأعمال المصنفة ضمن تحليل الخطاب تنوع كبير في مفهوم تحليل الخطاب في كل فرع معرفي، بل نجد ضمن الفرع الواحد مفاهيم مختلفة لهذا المصطلح، ولا يرتبط تنوع مفهوم تحليل الخطاب بالفروع المعرفية التي انبثق عنها فقط، بل يمتد أيضا إلى أنواع الخطاب التي يدرسها، كالخطاب السردّي، والشعري، والسياسي، والإعلامي...، حيث اكتسب مفهوم هذا المصطلح محدّدات إضافية مع كل نوع من أنواع الخطاب.

هذا التنوع والاختلاف انتقل إلى الثقافة العربية بانتقال مصطلح تحليل الخطاب إليها، خصوصا بالنسبة لتحليل الخطاب القرآني، الذي شغل كثيرا من المختصين في مجال الدراسات الأدبية واللغوية وعلم الاجتماع والفلسفة والأنثروبولوجيا، حيث تناول كل مختص الخطاب القرآني من منظور مرجعياته الفكرية والفلسفية، فأخذ مصطلح تحليل الخطاب مفاهيم تتناسب مع هذه المرجعيات، وإن كانت لا تخرج عن إطار التنوعات التي شهدتها المصطلح في الثقافة الغربية.

فما مفهوم تحليل الخطاب في الثقافة الغربية؟ وما مفهوم تحليل الخطاب القرآني في الثقافة العربية المعاصرة؟

2- مفهوم تحليل الخطاب عند الغرب:

ظهر مصطلح تحليل الخطاب في الثقافة الغربية كاسم أطلق على مجال معرفي مثل نقطة التقاء بين مختلف فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية من جهة، ونقطة التقاء بين التخصصات اللسانية وغير اللسانية من جهة أخرى، لذلك تعددت مفاهيم هذا المصطلح وتنوعت، ومن بين هذه المفاهيم ما نجده عند بعض رواد هذا المجال الآتي ذكرهم:

1-2- زليح هاريس: يعرف هاريس تحليل الخطاب في مقاله المعنون بـ تحليل الخطاب بأنه طريقة لتحليل متتالية من الملفوظات (المنطوقة أو المكتوبة) والتي نسميها خطابا (discours)، وهي طريقة شكلية لا تركز على المورفيمات كوحدات منعزلة بل كمجموعة من العلاقات داخل الخطاب، كما يعرفه في موقع آخر من نفس المقال بأنه البحث عن التتابعات داخل النص؛ التتابعات الخاصة بالمورفيمات كما هي موجودة في النص³، وبذلك فتحليل الخطاب عند هاريس هو مرادف لنحو النص أو لسانيات النص، وهو ما تؤكدته أبحاثه التي حاول فيها وضع نحو النص كبديل لنحو الجملة.

2-2- جولييان براون وجورج يول: يرى يول وبراون من خلال كتابهما تحليل الخطاب أنّ تحليل الخطاب هو " بالضرورة تحليل للغة في الاستعمال، لذلك لا يمكن أن ينحصر في الوصف المجرد للأشكال اللغوية بعيدا عن الأغراض أو الوظائف التي وضعت هذه الأشكال لتحقيقها بين الناس"⁴، هذه الوظائف ميزا فيها وظيفتين أساسيتين أطلقا على الأولى الوظيفة التفاعلية وتتمثل في التعبير عن المضامين، أما الثانية فسميها الوظيفة التفاعلية وهما يقصدان بها التعبير عن العلاقات الاجتماعية والمواقف الشخصية.

هذا الاستعمال للغة الذي يتحدث عنه يول وبراون يدخل فيه طرفا التواصل معا؛ وهما المتكلم والمتلقي، حيث يعالج تحليل الخطاب عندهما -كما صرحا في موضع آخر من كتابهما- " كيفية استعمال الناس اللغة أداة للتواصل، وكيف يؤلف المتكلم رسائل لغوية يوجهها إلى المتلقي، فيقوم هذا بمعالجتها لغويا على نحو خاص لتفسيرها"⁵، وعليه فتحليل الخطاب عند يول وبراون هو تحليل تداولي.

2-3- إميل بنفنيست: يعد بنفنيست من أوائل الفرنسيين الذين اهتموا بالخطاب بتعريفه وتحليله، حيث إنه عرّف الخطاب من منظور خاصية التلفظ، التي هي عنده وضع اللغة في الاستعمال عبر حدث فردي، ومن هذا المنطلق نجده يقول: " يجب أن نفهم الخطاب في مدلوله الأوسع، كل تلفظ يفترض متكلما وسامعا وعند الأول قصد التأثير على الثاني بطريقة ما"⁶ وبذلك فتحليل الخطاب عند بنفنيست هو تحليل خاصية التلفظ في الخطاب أو كما يسميه بنفنيست ومن هنا نحواه (أمثال ديكر و أنطوان كيليو) بـ لسانيات التلفظ.

2-3-بول ريكور: أما بول ريكور فكما يرى حمادة محمد الطاهر بأن تحليل الخطاب عنده يعبر عن التحليل

السيمائي والدلالي والتداولي، أي أن تحليل الخطاب هو تطبيق لهذه المناهج على الخطاب.⁷

2-4-ميشال فوكو: انطلق ميشال فوكو في تحديده لمفهوم تحليل الخطاب ومجاله من المفهوم الذي وضعه

لمصطلح الخطاب، حيث أسس فوكو مفهومًا خاصًا للخطاب لا يقوم على أصول لسانية أو منطقية، إذ إن الخطاب عنده يتشكل أساسًا من وحدات سماها بالمنطوقات، هذه المنطوقات تشكل منظومات منطوقية تسمى بالتشكيلات الخطابية، هذه التشكيلات تكون دائماً في حقل خطابي معين، وتحكمها قوانين التكوين والتحويل.⁸

كذلك الأمر بالنسبة لتحليل الخطاب فهو عند فوكو يختلف عن التحليل اللغوي وأيضاً عن التحليل المنطقي، إذ إن تحليل الخطاب عنده هو تحليل أركيولوجي وجنيالوجي، حيث إن الأركيولوجيا هي بالنسبة له وصف للخطابات كممارسة محددة في عنصر الأرشيف، هذا الأخير لا يعني النصوص أو الوثائق، بل يعني جملة القواعد المحددة في ثقافة ما لظهور أو ضياع المنطوقات، أو هو -أي الأرشيف- "جملة الأشياء التي قيلت في ثقافة ما، وعني الناس بحفظها، وارتفع قدرها عندهم، واستعملوها من جديد ووقع تكرارها وتحريرها"⁹، أما الجنيالوجيا فهي أيضاً قد تغير مفهومها عند فوكو، إذ لم تعد ذلك العلم الذي يبحث في البدايات والنهايات أو في الأصول والتطور والرقى، بل أصبح يعني الوقوف الطويل والمتأني عند البدايات بكل تفاصيلها واتفاقاتها والاهتمام الدقيق بقبحها وسخفها وانتظار بزوغ طلعتها من غير أقنعة-على حد قول ميشال فوكو، أو هي طريقة تاريخية غير تقليدية تبحث في الانقطاعات والفواصل وبالسطح وبالانتقالات عديمة الشأن والخفية، وتحاول تفسيرها اعتماداً على استراتيجيات المعرفة والسلطة والجسد.¹⁰

وبذلك فقد وظّف ميشال فوكو مصطلح تحليل الخطاب للدلالة على تطبيق منهجين على الخطاب

أحدهما وصفي تحليلي والآخر تفسيري تأويلي.

2-5-نورمان فاركلوف:

تحليل الخطاب عند فاركلوف هو تحليل نقدي للخطاب، يسعى فيه إلى الجمع بين التحليل اللساني للنصوص والتحليل التفاعلي أو الاجتماعي لها، وذلك من خلال التركيز على النصوص وعلى ما سماه نطاق الخطاب الذي يقصد به البناء الثابت نسبياً للغة الذي يشكل مكوناً في بناء الممارسات الاجتماعية والشبكة التي تؤلفها الثابتين نسبياً، وبذلك فالتحليل النقدي للخطاب يهتم بالاستمرارية والتغير على هذا المستوى الأكثر تجريدًا وبنائية من مستوى النصوص كما يهتم أيضاً بما يحصل في النصوص بعينها.¹¹

وهذا الاهتمام بالجانب التفاعلي للخطاب عند فاركلوف يعود إلى اعتباره أن اللغة هي جزء من الحياة الاجتماعية وبينها وبين العناصر الاجتماعية الأخرى علاقة جدلية، لذلك ركّز على الخلفية الأيديولوجية التي يحملها الخطاب، خصوصاً تلك الخطابات التي تسهم في السيطرة على الجماهير وتوجيهها وجهة معينة. ولذلك

يطلق على تحليله الذي عرضه في كتابه تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي بالتحليل الأيديولوجي.¹²

ويمكن أن نضيف إلى من ذكرنا؛ كل من جون سنكلير ومالكوم كولتهارد، اللذان يريان أن تحليل الخطاب هو تحليل للحوارات باختلاف أنواعها ومناسباتها، كذلك الأمر بالنسبة لكلتار الذي اهتم بتحليل الخطاب التحادثي لسانيا وأنثروبولوجيا.

وكخلاصة لما تقدم؛ يمكن القول بأنّ تحليل الخطاب في الدراسات الغربية عند من ذكرناهم، وعند غيرهم ممن لم نذكرهم يعني: لسانيات النص، والتحليل الدلالي، والتحليل السيميائي، والتداولي والعرفاني، وكذلك الحوارية، والأنثروبولوجية والأركيولوجية، والجنياولوجية، وأيضا الأيديولوجية.

فهل تتكرر هذه المفاهيم في تحليل الخطاب القرآني عند العرب؟

3- مفهوم تحليل الخطاب القرآني عند العرب:

دخل مصطلح تحليل الخطاب إلى اللغة العربية ودخل معه التعدد والاختلاف حول المفهوم الذي شهده الغرب، مما جعل كثيرا من المهتمين بهذا الموضوع يختلفون حول مفهومه، والأمر لا يقتصر على تحليل الخطاب بشكل عام، بل امتد إلى فروعه، وعلى رأسها تحليل الخطاب القرآني، الذي تنوعت مفاهيمه بتنوع المشتغلين فيه وبتنوع خلفياتهم الفكرية ومرجعياتهم الثقافية، وفيما يأتي ذكر لاهم رواد تحليل الخطاب القرآني وطريقة توظيفهم لمصطلح تحليل الخطاب:

3-1- محمد أركون:

يلخص محمد أركون رحلته مع تحليل الخطاب القرآني في بداية مقدمة كتابه "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني" (2001)، حيث يقول: "لقد شرعت في تطبيق إشكاليات ومناهج اللسانيات والسيميائيات لتحليل الخطاب القرآني منذ أوائل السبعينات من القرن الماضي"¹³ ثم يذكر بحثين أساسيين يمثلان هذا التطبيق هما:

-الأول هو بحث بعنوان كيف نقرأ القرآن نشره سنة 1970 كمقدمة لترجمة كازيميرسكي للقرآن.

-والثاني هو كتاب قراءات في القرآن (1982) جمع فيه بحوثه المنجزة بين سنة 1970 و 1982.

إضافة إلى كتاب القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني الذي أعاد فيه نشر ثلاثة فصول من الكتاب السابق.

يتحدث أركون في مقدمة الكتاب السابق الذكر- بعد الإشارة إلى تجربته مع تحليل الخطاب الديني، عن أهمية هذا المجال حيث يقول: "فتحليل الخطاب الديني أو تفكيكه يتم لا لتقديم معانيه الصحيحة وإبطال التفسير الموروثة، بل لإبراز الصفات اللسانية اللغوية وآلات العرض والاستقلال والإقناع والتبليغ والمقاصد المعنوية الخاصة بما أسميته "الخطاب النبوي"¹⁴،

هذا الخطاب النبوي هو عند أركون مصطلح يطلق على النصوص المجموعة في كتب العهد القديم والأنجيل والقرآن كمفهوم يشير إلى البنية اللغوية والسيمائية للنصوص، لا إلى تعريفات وتأويلات لاهوتية عقائدية؛ أي إلى الكتب المقدسة في ذاتها كنصوص تأسيسية كبرى، وليس النصوص المتولدة عنها المتمثلة في التفاسير المختلفة، وبذلك فموضوع التحليل بالنظر إلى هذا المفهوم هو الأنظمة السيمائية للكتب المقدسة وليس للتفاسير-على حد قوله. أما عن تحليل هذه الأنظمة فهو تحليل لساني وسميائي، وهو تحليل لا يلغي حسب أركون التحليل والتأويل اللاهوتين إلا أنه سابق منهجيا وابستمولوجيا عليه¹⁵.

ويضيف أركون بأن تحليل الخطاب الديني يتبنى تساؤلات الأنثروبولوجيا الدينية والثقافية والاجتماعية للوصول إلى التعرف على المفاهيم والتصورات وطرق التأصيل للعقائد والمعاني التي تنبني عليها جميع الأديان المعروفة في تاريخ المجتمعات الإنسانية¹⁶.

وبذلك فتحليل الخطاب الديني عند أركون هو تحليل لساني سيميائي أنثروبولوجي إضافة إلى القراءة اللاهوتية التفسيرية، وهو ما يلخصه أركون بقوله إنَّ هناك ثلاثة بروتوكولات متداخلة متفاعلة لقراءة القرآن هي القراءة التاريخية- الأنثروبولوجية، القراءة الألسنية-السيمائية، القراءة اللاهوتية-التفسيرية، بحيث أن القراءة اللاهوتية-التفسيرية تأتي بعد القراءتين السابقتين¹⁷.

أما عن حدود هذه القراءة التحليلية؛ فأركون يرى أنه ينبغي أن تخرج من السياج المغلق المشكّل من قبل كل تراث ثقافي، هذا الخروج ينبغي أن يتوافق مع مسارين في آن واحد:
-مسار الصوفي الذي يقوم بحركة روحية لا تستقر في أي مرحلة من مراحل السلوك نحو الله.
-ومسار الباحث الذي يتخذ البحث العلمي كممارسة نضالية¹⁸

وهذا يعني أنّ أركون يرفض ابستمولوجيا التوقف عند حل معين مهما حقق من نتائج، أي أن تحليل الخطاب الديني عنده في نهاية المطاف هو قراءة مفتوحة لا تتوقف عند حد معين، فهي مستمرة وممتدة إلى ما لا نهاية.

3-2- نصر حامد أبو زيد:

يعد كتاب نقد الخطاب الديني (1990) لنصر حامد أبو زيد، من بين الكتب التي بيّن فيها أبو زيد مفهوم تحليل الخطاب وموضوعه وأهدافه من وجهة نظره، حيث أنه عدّ علم تحليل الخطاب -كما يسميه- إطارا تحليليا يهتم بالنسق العام ويتخذ من الأقوال مجرّد شواهد كاشفة عن بنية النسق الذي تشترك فيه الأذهان المنتجة لهذا الخطاب، وهنا تتبدى طبيعة المنظور الذي ينظر من خلاله إلى الخطاب وهو منظور ذو ملامح بنوية -وإن لم يصرح بذلك مباشرة، أما بالنسبة للأقوال التي ذكرها فيقول عنها: "إن تحليل الخطاب يهتم بكل أنواع القول موضوعا له، لكن كلمة قول لا تنصرف فقط إلى الأقوال اللغوية، بل هي مصطلح يتناول كل أنماط القول اللغوية وغير اللغوية"¹⁹، ويقدم أبو زيد بعد هذا التحديد أمثلة عن الأقوال غير اللغوية تتمثل في: الرسم الكاريكاتوري، واللون الذي يبرز كلاما معيّنا، وإظهار أو إخفاء أو تضخيم أو تصغير عنوان

معين. وكل هذه الأمثلة تعد بالنسبة لنصر حامد أبو زيد أقوالاً، وهذا الأمر يحيلنا إلى موضوع السيميائيات المتمثل في العلامات اللغوية وغير اللغوية أو بالأحرى أنظمة العلامات اللغوية وغير اللغوية، وإذا وصلنا تتبع أقوال أبو زيد الواردة في المقدمة نجده يتحدث عما يركز عليه علم تحليل الخطاب وهو الدلالات التي يمكن استنباطها من الأقوال، لأن تلك الدلالات تمارس تأثيرها على المتلقي سواء كانت دلالات مقصودة أم غير مقصودة²⁰، وبذلك فملاح السيميائيات التي تصبح عند أبو زيد مرادفة لتحليل الخطاب ظاهرة جلية. هذا العلم الذي هو ليس بغريب عن أبي زيد وهو الذي خصص عدة مؤلفات للتعريف به²¹.

ولكن نصر حامد أبو زيد لا يكتفي بذلك بل يضيف إلى السيميائيات بعداً آخر هو البعد التداولي، وذلك من خلال تتبع الأثر الذي تتركه اللغة على المتلقي أثناء عملية التواصل، دون البحث أو الاهتمام بالنوايا والضمائر أو الدخول في عالم ما قبل القول - على حد قول أبو زيد، وهو ما يبرر به استخدامه لمصطلح علم تحليل الخطاب وابتعاده عن مصطلح تحليل الأفكار، الذي يوهم الدخول في نوايا المتكلم ويتوهم الوصول إلى المقصد الأصلي قبل الكلام²².

هذا المفهوم لتحليل الخطاب الديني بقي هو نفسه عند أبي زيد عند تعامله مع الخطاب القرآني، حيث إن أبا زيد قد انتقل من خلال مشروعه الفكري الذي يدور حول القرآن والدراسات القرآنية، من التعامل مع القرآن باعتباره نصاً، كما هو بين في كتابه: **مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن (1990)**، إلى التعامل معه باعتباره خطاباً، كما وضّحه في كتابه **التجديد والتحريم والتأويل بين المعرفة العلمية والخوف من التكفير (2010)**، وهو يصف هذا الانتقال بالتجديد، ويراه نابعا من الدراسة النقدية المتألمة لتاريخ التفسير ومناهجه قديماً وحديثاً، ويبرره بإدراكه لعواقب التعامل مع القرآن باعتباره نصاً، حيث إنّ النص يتضمن مفهوم المؤلف و مفهوم القصد، كما يتضمن مفهوم الوحدة النسقية بين أجزاء القرآن، وهو ما يدفع إلى تأويلية سلطوية، تزعم إمكانية الوصول إلى الحقيقة المطلقة، كما هو الحال عند المفسرين الأوائل²³.

ويرى أبو زيد أن هذا المصطلح الذي هو النص، الذي تبناه في بداية مشواره الفكري، على غرار غيره من المفسرين القدامى، قد انبثق منذ لحظة جمع القرآن وتدوينه وترتيبه في مصحف وفق ترتيب التلاوة، ودون مراعاة ترتيب النزول، هذا التدوين يسميه أبو زيد عملية تقنين القرآن، هذه العملية تجاهلت في نظره طبيعة القرآن الأصلية أو الطبيعة التداولية للقرآن بوصفه خطاباً أو خطابات متعددة السياقات من جهة ومتعددة المستقبلين التاريخيين من جهة أخرى، فالقرآن قبل مرحلة التدوين - كما يقول أبو زيد، كان عبارة عن عملية محاورة ونقاش وتعديل، وفق متغيرات السنوات الثلاث والعشرين في حياة النبي وحياة المستقبلين المحاورين من عرب ويهود ونصارى وكفار ومنافقين، وقد استمر القرآن بعد عصر التدوين بممارسة وظيفته في الحياة اليومية بوصفه خطاباً لا بوصفه نصاً²⁴.

وبذلك فإننا - حسب أبي زيد - بالعودة إلى الطبيعة التداولية للقرآن نحن نؤسس لتأويلية حية مفتوحة في مقابل تلك التأويلية السلطوية القائمة على النص، ولتحقيق ذلك وجب علينا تطبيق منهج تحليل الخطاب

الذي يحاول الاقتراب من الظاهرة القرآنية قبل الصياغات اللاهوتية والتشريعية أو الفلسفية والأخلاقية البعد قرآنية، بما يتضمنه هذا المنهج من الكشف عن الأصوات البارزة والمضمرة في كل خطاب على حدة، والكشف عن فحوى الخطاب أو المسكوت عنه²⁵.

ويضيف نصر حامد أبو زيد في توضيح هذا المنهج قوله؛ بأن منهج تحليل الخطاب يوظف التحليل اللغوي للنصوص ولا يكتفي به، فاللغة في الخطاب تتجاوز دلالي حدود العلامة اللغوية حين تحوّلها إلى علامة سيميوطيقية، فيما يعرف بالسمطقة ومن هنا يتم توظيف السيميوطيقا في التعامل مع الخطاب. وبذلك فتحليل الخطاب القرآني من منظور نصر حامد أبو زيد هو تحليل سيميائي وتداولي، أما بالنسبة للتأويل الذي لا ينفصل عن التحليل اللغوي عند أبي زيد، فهو متأثر فيه بشكل كبير بهرمينوطيقا هيدغر، حيث يقول تعلّمنا الهرمينوطيقا الدرس الذي يجب ألا ننساه: كلّ تأويل مشروع طالما ينطلق من التواضع وعدم ادّعاء الموضوعية المطلقة، التي لا وجود لها: ليست الحقيقة - أقصد المعنى - قارّة في النصوص الظواهر، وليست في عقل المفسّر ووعيه، بل هي ناتج هذا التفاعل الجدليّ بين المفسر - لا الفرد بالمعنى الفرويدي بل الفاعل الاجتماعي - وبين الظاهرة/النص²⁶.

وهو ما يفتح باب التفسير وباب الاحتمالات على مصرعيه، هذا الانفتاح هو تأكيد لما سبق أن ذكره في كتابه **إشكاليات القراءة وآليات التأويل** (2001)، حيث يكرر مقولة هيدغر أن اللغة ما تقوله أيضا، ثم يشرحها بقوله إن الإنسان لا يتكلم من خلال اللغة بل اللغة هي التي تتكلم من خلاله، وبذلك حسب تأويلية هيدغر أنه علينا ترك اللغة تبين لنا عن معناها دون فرض مقولاتنا عليها، وقد ترتب عن هذه الفكرة أن أصبح الفهم الصحيح هو الاستسلام للغة؛ لأنها تمثل التجلي الوجودي للعالم، كما أنّ هذا الفهم غير ثابت ومستمر، لأن المعنى ليس قارا بل هو متغير، بحسب طبيعة التفاعل التي تتم بين الخطاب ومتلقيه²⁷.

وكخلاصة لما تقدم فإن القرآن عند نصر حامد أبي زيد هو **خطاب لغوي** يمكن تفسيره من خلال تحليله تحليلًا سيميائيًا وتداوليًا مع إمكانية تأويله كما تقول سائر الخطابات الأخرى، تأويلا يتوافق مع ما نفهمه نحن في ظل الثقافة التي ننتمي إليها.

3-3- محمد عابد الجابري:

تعامل الجابري مع الخطاب تعاملًا خاصًا، وذلك في أهم كتبه التي جعل موضوعها الرئيس هو الخطاب وأنواعه، هذا الكتاب هو **الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية** (1983) حيث عرض في مقدمته مفهوم الخطاب والطرق المتنوعة في قراءة هذا الخطاب إضافة إلى المنهج المعتمد في قراءته في هذا الكتاب، كما تطرّق إلى أصناف الخطاب .

فإذا جئنا إلى التعريف؛ فإن الجابري ينظر إلى الخطاب من زاويتين هما: زاوية الكاتب، و زاوية القارئ، فأما من زاوية الكاتب فإنّ الجابري يرى أن الخطاب -باعتباره مقول الكاتب، فهو بناء من الأفكار يحمل وجهة نظر، أو هو هذه الوجهة من النظر مصوغة في بناء استدلالي، وفي هذا البناء لا بد للكاتب من اختيار

أشياء وإهمال أخرى، ولا بد من إبراز جوانب والسكوت عن جوانب، ولا بد من تقديم وتأخير وتضخيم وبتز. هذه الاختيارات تحكمها قواعد معينة يحترمها الكاتب ليقدم وجهة نظره للقارئ بالصورة التي يحقق بها الخطاب مهمة الإخبار والإقناع.²⁸

في حين أن الخطاب من زاوية القارئ - باعتباره مقروء القارئ، فهو ذلك البناء نفسه وقد أصبح موضوعا لإعادة البناء أي نصا للقراءة، ومهما كانت درجة وعي القارئ فانه يمارس في ذلك النص ما كان يمارسه صاحبه من اختيارات ومن ثم يساهم القارئ في إنتاج إحدى وجهات النظر التي يحملها الخطاب صراحة أو ضمنا. وبذلك تختلف القراءات وتتعدد مستوياتها.²⁹

أما عن قراءة هذا الخطاب والذي يظهر من كلام الجابري أنه يقصد به النص المكتوب، وليس الخطاب الشفوي، فإن هناك صنفان من القراءة:

-الصنف الأول يتمثل في **القراءة الاستنساخية** أو القراءة ذات البعد الواحد (البعد الذي يتحدث منه صاحب النص)، وهي قراءة تقف عند حدود التلقي المباشر وتجتهد في إخضاع نفسها للنص. كما تحاول أن تقدم لنا صورة طبق الأصل للمقروء، أي تعبيرا مطابقا لوجهة النظر المكشوفة والصريحة التي يحملها النص.

-الصنف الثاني هي **القراءة ذات البعدين**؛ بعد القارئ وبعد الكاتب، وهي تحاول إنتاج بناء واحد منسجم ومتناسك يجمع البعدين، وذلك من خلال تأويل الخطاب، كما تجتهد في إخفاء التناقضات التي تقدم نفسها على سطح الخطاب المقروء، أو حتى تلك الموجودة في هيكله.³⁰

أما عن القراءة التي يتبناها الجابري فهي من نوع آخر، وضعها هو بما يتلاءم مع مشروعه، هذه القراءة هي **القراءة التشخيصية** التي ترمي إلى تشخيص عيوب الخطاب وليس إعادة بناء مضمونه، أو هي قراءة تريد أن تعرض وتبرز ما تهمله أو تسكت عنه أو تتستر عليه القراءتان السابقتان، إنها كشف لتناقضات الخطاب السطحية والهيكلية.³¹

وقد حدد الجابري هدف هذه القراءة الذي هو ليس المضمون الأيديولوجي ولا المحتوى المعرفي؛ وإنما تشخيص علامات العقل الذي أنتجه، من خلال البحث عن **كيف قال الخطاب ما قاله**، وذلك بالاعتماد على منطق الخطاب ومفهومه.³²

وقد خص الجابري الخطاب العربي الحديث والمعاصر بهذا النوع من القراءة، وذلك تحقيقا لمشروعه المتمثل في نقد العقل العربي. وقد صرح بأن هذا النقد الذي سيطبقه على هذا الخطاب في هذا الكتاب هو نقد ابستمولوجي، وليس نقدا ايدولوجيا كما هو معتاد عليه في مؤلفاته السابقة. أما عن المنهج الذي يتبناه، فقد صرح بأنه سيعتمد إلى المزاوجة بين المعالجة البنيوية والتحليل التاريخي، هذا الأخير ليس الهدف منه الكشف عن تاريخية الخطاب - كما جرت العادة، بل عن لا تاريخية الخطاب وعن انقطاع العلاقة بين منطوقه ومضمونه للوصول إلى بنيته المنطقية وأساسه الابستمولوجية.³³

وبذلك فالجباري من خلال كتابه الخطاب العربي الحديث والمعاصر، يتعامل مع الخطاب المكتوب لا الشفوي، ويخص الخطاب العربي الحديث والمعاصر، هذا الخطاب ليس خطاب سائر الناطقين بالعربية بل الخطاب الخاص بفئة المفكرين العرب الذين يكتبون بالعربية في أفق عربي، ويحاول تحليله تحليلًا ابستمولوجيًا، لاستنباط بنية العقل العربي من خلاله³⁴.

وبالنسبة للخطاب القرآني، فإنّ الجباري الذي خصص جزءًا كبيرًا من حياته لتحليل الخطاب التراثي ضمن انشغاله بنقد العقل العربي، نجده بعد 2001 قد بدأ يولي تحليل الخطاب القرآني اهتمامًا أكبر، وهو ما تجلّى في كتابه **مدخل إلى القرآن الكريم (2006)** وما تلاه من كتب، حيث لم يخرج مفهوم تحليل الخطاب عنده عمّا سبق، كما لم يخرج كثيرًا عن مبادئ بعض الحداثيين في التعامل مع القرآن الكريم، مثل ضرورة فصل فهم القرآن عن كتب التفسير باختلاف أنواعها؛ باستثناء التفاسير اللغوية، وتفسير الطبري، وتفسير الرمحشري-وهو ما سبق أن رأيناه عند اركون، وكذلك ضرورة إعادة زرع القرآن داخل مجاله التداولي الأول الذي يحفظ بيانيته، وإعادة ترتيبه وفق السياق التاريخي لمناسبات نزوله، لا بهدف القول بتاريخية القرآن، بل لحمايته من تدخلات استشراقية أخذت -حسب وجهة نظر الجباري- تطرح على القرآن أسئلة غريبة على طبيعته ومن خارج مجاله التاريخي، ومن توظيفات أيديولوجية محلية جعلته ينطق بغير منطق، ويدلي بمعان لا يريد لها يعينها أصلاً.³⁵

أما عن قراءة هذا الخطاب فالجباري يقترح قراءة جديدة محايدة للنص القرآني في ذاته ولذاته في خطوة أولى؛ وهو ما يمثله **المنهج النبوي**، ثم يفتح في خطوة ثانية على محيطه ترتيب **النزول**، ومراعاة معهود العرب اللغوي والحضاري **المقاربة التاريخية**. هذه القراءة الجديدة لا تعني العودة إلى البحث عن قواعد الخطاب القرآني وقواعد تفسيره، ولكن تعني بناء فهم جديد للدين؛ عقيدة وشريعة، انطلاقًا من الأصول مباشرة، والعمل على تخيينه، أي جعله معاصرًا لنا وأساساً لنهضتنا وانطلاقنا-حسب قول الجباري في كتاب نحن والتراث³⁶.

وبذلك فتحليل الخطاب القرآني عند الجباري هو **مقاربة نبوية تاريخية**.

3-4-حسن حنفي:

يعد حسن حنفي من أهم المفكرين والفلاسفة الذين كرّسوا حياتهم لخدمة مشروع الإسلام اليساري -كما يسميه، وقد سعى إلى إيجاد مقاربة للقرآن بديلة عن التفسير التراثية، هذه المقاربة التي بثها في مختلف كتبه لخصها في فصل من كتابه **حصار الزمن (2004)** عنوانه تحليل الخطاب، حيث ركّز فيه على أبعاد الخطاب وأنواع الخطاب، وعلى مناهج تحليل الخطاب.

وبالنسبة لمناهج الخطاب؛ يرى حسن حنفي أن هناك أربعة مناهج لتحليل الخطاب هي³⁷:

- 1-منهج تحليل الألفاظ: يهتم بضبط استخدام الألفاظ والتراكيب.
- 2-منهج تحليل اللغة: الذي هو نفسه المنهج السابق إلا أنه يهتم بالمعاني والأشياء.

3- منهج تحليل الأحلام: يذهب هذا المنهج إلى ما وراء الألفاظ والصور والخيالات لمعرفة الدلالات النفسية الواعية واللاواعية.

4- منهج تحليل المضمون : هو المنهج الأعم والأشمل الذي يضم المناهج السابقة. هذا المنهج الأخير هو المنهج المفضل عند حسن حنفي؛ لأنه منهج يهدف إلى أخذ كل الدلالات اللغوية والمعرفية والواقعية والفعلية للخطاب طبقاً لأبعاده الأربعة؛ المتمثلة في عالم اللغة، وعالم المعاني، وعالم الأشياء، وعالم الأفعال، ووضع النص في سياقه الاجتماعي وفي آلياته الاتصالية، ومعرفة النص بأكبر قدر من الموضوعية والشمول، من أجل العثور على بنية الفكر وهي نفسها بنية الموضوع، وهو نوع جديد من التطابق كضمان للموضوعية بين الفكر والواقع وبين المعرفة والوجود³⁸.

ولعل الفكرة الأخيرة هي الفكرة الجوهرية عند حسن حنفي أي ربط الفكر بالواقع، إذ إنه يرى أن من عيوب التفاسير التراثية أنها لم تربط الوحي بالواقع، أو بمعنى آخر لم تفسر الوحي من منظور الواقع، لأنّ الوحي ظاهرة اجتماعية تاريخية كأي ظاهرة أخرى، والنصوص الدينية ذاتها نصوص تاريخية، نشأت في ظروف اجتماعية خاصة عُرفت باسم أسباب النزول وتطورت طبقاً للزمان وتحدد حاجات المجتمع، وتنوع قدرات البشرية من حيث هي مصادر للشرع عُرفت باسم الناسخ والمنسوخ. وثانياً، أنه ليس إلا علماً إنسانياً، إذ بمجرد نزوله لم يعد تنزيلاً إلهياً ولكنه صار علماً إنسانياً. وثالثاً، أنه مجرد صدى للواقع واستجابة له فلا وجود موضوعي مستقل للوحي بعيداً عن الواقع. ورابعاً، أنه ظني لا يثبت شيئاً ولا ينفيه، وأخيراً أنه ليس ثابتاً ولكنه يتطور في الزمان والمكان حسب احتياجات البشر وطبقاً لاختلاف الزمان والمكان³⁹.

وبذلك فتحليل الخطاب بالنسبة لحسن حنفي يحلّل مختلف عناصر الخطاب مهما اختلف نوعه، للوصول بالدرجة الأولى إلى علاقة هذا الخطاب بالواقع، وهو جوهر الدراسات اليسارية.

4-خاتمة:

وفي الختام يمكن القول أن رواد تحليل الخطاب القرآني العرب الذين ذكرناهم يشتركون في كثير من النقاط، أهمها:

- أن تحليل الخطاب القرآني ما هو إلا تطبيق لمناهج تحليل الخطابات الأدبية والسياسية والسلطوية واليومية....على الخطاب القرآني، هذه المناهج تمثلت في المنهج: اللساني، والبنوي، والسيميائي، والتداولي، والتاريخي، والانثروبولوجي. وهي مناهج ولدت في الثقافة الغربية بمرجعيات فلسفية غربية، وانتقلت إلى الثقافة العربية بمرجعياتها أو بدونها. وبذلك فلا وجود لخصوصية الخطاب القرآني الإلهي، كما لا وجود لخصوصية دراسة الخطاب القرآني - من منظورهم.

-أنهم جميعاً يتفقون على إبعاد التفاسير التراثية إبعاداً جزئياً أو كلياً، ويلجؤون على استبدالها بتأويلات تعتمد على ربط الخطاب القرآني بالواقع المتغير، بحيث كلما تغيّر الواقع تغير معه المعنى؛ أي نسبة المعنى.

هذا الأمر يدفعنا لطرح التساؤل الآتي: ما سر التشابه الكبير بين مقولات هؤلاء الرواد العرب فيما بينهم، وما سر شبه مقولاتهم بمقولات المستشرقين قبلهم؟ هذا التشابه هو موضوع يستحق البحث فيه مستقبلا.

5- الهوامش:

- ¹ كاتي وايلز، معجم الأسلوبيات، تر: خالد الأشهب، ط1، المنظمة العربية للنشر، بيروت، 2014، ص 2016
- ² باتريك شارودو، ودومينيك منغون، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري وحماي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص 16
- ³ Harris Zellig S , Analyse du discours, Traduit par Dubois -Charlier Françoise , In Langage, N 13, Paris 1969. مجلة P8 ، نقلا عن فريدة موساوي، مفهوم تحليل الخطاب عند زليج هاريس، ص 106، إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 8، ع 4، المركز الجامعي تمارست، 2019، ص 106
- ⁴ يول وبراون، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي، (د.ط)، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997، ص 01
- ⁵ المرجع نفسه، ص ي من المقدمة
- ⁶ محمود طلحة، مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي من خلال شروح التلخيص، ط1، كنوز المعرفة، عمان، 2019، ص ص 26-27
- ⁷ ينظر حمزة محمد الطاهر، تحليل الخطاب القرآني دراسة نقدية لتطبيقات المناهج الغربية المعاصرة، دار ركائز للنشر والتوزيع، الأردن، 2021، ص 43
- ⁸ ينظر الزاوي بغورة، مفهوم الخطاب عند ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، ص 123
- ⁹ ينظر المرجع نفسه، ص 113
- ¹⁰ ينظر المرجع نفسه، ص 129
- ¹¹ ينظر نورمان فاركولوف، تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، تر: طلال وهبة، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 21
- ¹² ينظر حمزة محمد الطاهر، تحليل الخطاب القرآني، ص 44
- ¹³ محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، دار الطليعة، ط2، لبنان، 2005، ص 5
- ¹⁴ ينظر نفسه، ص 05
- ¹⁵ ينظر المرجع نفسه، ص 6
- ¹⁶ ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- ¹⁷ ينظر المرجع نفسه، ص 39
- ¹⁸ ينظر المرجع نفسه، ص 123
- ¹⁹ ينظر نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ط2، سينا للنشر، جمهورية مصر العربية، 1994، ص 26
- ²⁰ ينظر المرجع نفسه، ص 27
- ²¹ مثال ذلك مدخل الى السيميوطيقا بالاشتراك مع سيزا قاسم

- ²² ينظر نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص 28
- ²³ ينظر أبو زيد نصر حامد، التجديد التحريم والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2010، ص 198
- ²⁴ ينظر المرجع نفسه، ص 216
- ²⁵ ينظر نصر حامد أبو زيد (2011/08)، من البدايات الى تحليل الخطاب، (2023/011/28) [/https://www.laghoo.com](https://www.laghoo.com)
- ²⁶ ينظر المرجع نفسه
- ²⁷ ينظر نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2014، ص 32
- ²⁸ ينظر محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998 ص 10
- ²⁹ ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- ³⁰ ينظر المرجع نفسه، ص 12
- ³¹ ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- ³² ينظر المرجع نفسه، ص 13
- ³³ ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- ³⁴ ينظر المرجع نفسه، ص 15
- ³⁵ إدريس جبري (2014/07/16)، الخطاب القرآني وآليات اشتغاله عند محمد عابد الجابري [/https://www.nachrat.com](https://www.nachrat.com)
- ³⁶ ينظر المرجع نفسه
- ³⁷ حسن حنفي حصار الزمن، ط1، مركز كتاب للنشر، القاهرة، 2004، ص 27
- ³⁸ المرجع نفسه، ص 27
- ³⁹ فاطمة حافظ، القرآن وتفسيره عند حسن حنفي، <https://islamonline.net> (2023/12/14)

6-قائمة المراجع:

1. بغورة الزاوي، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الجزائر، 2000
2. أركون محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، دار الطليعة، ط2، لبنان، 2005
3. الجابري محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998
4. حنفي حسن، حصار الزمن، ط1، مركز كتاب للنشر، القاهرة، 2004
5. أبو زيد نصر حامد، التجديد التحريم والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2010
6. أبو زيد نصر حامد، نقد الخطاب الديني، ط2، سينا للنشر، جمهورية مصر العربية، 1994
7. أبو زيد نصر حامد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2014

8. شارودو باتريك ، ودومينيك منغوي، معجم تحليل الخطاب، تر:عبد القادر المهيري وحماي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008
9. طلحة محمود ، مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي من خلال شروح التلخيص، ط1، كنوز المعرفة، عمان، 2019
10. فاركلوف نورمان ، تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، تر: طلال وهبة، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009
11. وايلز كاتي، معجم الأسلوبيات، تر:خالد الأشهب، ط1، المنظمة العربية للنشر، بيروت، 2014
12. يول وبراون، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي، (د.ط)، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997
13. موساوي فريدة ، مفهوم تحليل الخطاب عند زليج هاريس، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 8، ع 4، المركز الجامعي تلمسان، 2019
14. أبو زيد نصر حامد (2011/08)، من البدايات الى تحليل الخطاب، [/https://www.laghoo.com](https://www.laghoo.com) (2023/011/28)
15. جبيري إدريس (2014/07/16)، الخطاب القرآني وآليات اشتغاله عند محمد عابد الجابري <https://www.nachrat.com> (2023/12/12)
16. حافظ فاطمة ، القرآن وتفسيره عند حسن حنفي، [/https://islamonline.net](https://islamonline.net) (2023/12/14)